البحث العربي ومجتمع المعرفة : رؤية نقدية جديدة

ساري حنفي

2015-02-17

العلم إلى حد ما كناية عن السياسة، لأن عقلانيته المزعومة تحجب الرؤية عن المصالح المتضاربة بين المهتمين، وهو أيضا أنقى تعبير عن التنمية والتحديث. في حزيران/يونيو عام 2014، نظمنا تكريماً لسمير خلف، وهو أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت. عندما أرسلنا هذه الدعوة إلى قائمتنا البريدية، تلقينا سبع مكالمات هاتفية ورسائل بريد إلكترونية يتساءل فيها أصحابها إذا كان خلف قد توفي، وأربع رسائل أخرى يتساءلون إذا كان قد تقاعد؟ ولعل هذه الحكاية تلمح إلى حقيقة عدم وجود تقليد في الوطن العربي لتكريم أكاديميين على قيد الحياة أو خلال حياتهم المهنية. فهذا الأمر إن دّل على شيء، فهو يدل على غياب «الجماعة العلمية (Scientific Community) في لبنان التي تهتم بالاعتراف بمساهمات أعضائها.

بالطبع، التقاليد هي نتيجة لإعادة تفعيل التاريخ. كما إن الأوساط العلمية والأكاديمية والتخصصات مغرمة بهذه الطقوس الصغيرة كإحياء المكانة الفكرية لأعضائها، ويسمح ذلك بقياس وضعية فرد أو مجموعة داخل الجماعة العلمية. ولهذه التقييمات غير الرسمية رهانات مهمة لمعرفة تموضع أي مجموعة ضمن الحقل الأكاديمي، وتفعل المؤسسات بعض هذا العمل الحدودي. من هنا أهمية فهم عملية المأسسة التي حدثت في المنطقة العربية، وخصوصا في لبنان. ونحن بدورنا نتساءل: لماذا جاءت هذه العملية في وقت متأخر جدا؟ ولماذا انتظر العلماء طويلا قبل خلق الجماعة العلمية النشطة. في شهر آذار/مارس عام 2014، عقدت الجمعية اللبنانية لتقدم العلوم مؤتمرها السنوي العشرين. وكانت هذه الفرصة لتقديم أكثر من 400 بحث وملصق في مجال العلوم الطبيعية والدقيقة.

وتعتبر هذه الأرقام مرتفعة نسبياً لمثل هذه الجماعة العلمية الصغيرة، وفي بلد صغير؛ فالأمر لا يتعلق بمجرد حجم هذه الجماعة، وإنما

بمسألة النسب. الباحثون هنا، ولكن هل هناك جماعة علمية؟ «في هذا البلد، يمكنك العثور على متخصص في أي تخصص، ولكنك لن تجد شخصين في المجال نفسه». كان ذلك ملاحظة ظريفة من مدير بحوث كنا قد قابلناه العام الماضي. ربما يبدو ذلك مبالغة، ولكن من المؤكد أنه يعكس واقعاً لمسه الكثيرون. يبدو هذا النقص في «الجماعة العلمية» غريباً في بلد يتشكل أساسا من «جماعات» دينية واجتماعية معترف بها في الحياة السياسية للبلاد. وربما يكمن جزء من الجواب، على وجه التحديد، في تشظي المجتمع اللبناني بين العديد من الجماعات المتنافسة.

كذلك فإن الأوضاع في جميع أنحاء الوطن العربي تماثل الوضع والسياق في لبنان مع فوارق قد تكون بسيطة أو كبيرة. سنتناول أسباب الاعتراف الضعيف بالجماعة العلمية في البلدان العربية، على الرغم من كونها غنية بالجامعات والمستشفيات، والى درجة ما بالإنتاج العلمي. ونتساءل فيما إذا كانت مشكلة التشرذم تنبع من المؤسسات أم أنها نتيجة سياسات ومعيقات سياسية واجتماعية عميقة أثرت في إنتاج المعرفة العلمية. كما يسلط الضوء على التوتر بين تدويل البحث وأهميته المحلية، وبالتالي وجود حلقة مفقودة بين البحث والجامعات والمجتمع. وسوف نتناول إشكالية اختزال الأنشطة البحثية على الإنتاج العلمي المحض، حيث تهمل المواد الناتجة من ترجمة المعارف إلى أشكال أخرى، كتقديم المشورة بشأن السياسات والأنشطة العامة؟

- المقال كاملاً تجدونه على الرابط التالي